مادة الأدب الأموي (قسم النثر): د. زاهر الشمّاع

المحاضرة السابعة

الوصايا في العصر الأموي

رأينا أنَّ الوصايا في صدر الإسلام قد دارتْ في غالبيتها حول جانبين؛ أولهما: وصايا الخلفاء لمن ولي الأمر بعدهم، وثانيهما: وصاياهم لقوادهم وعمالهم حين يولونهم حرباً أو عملاً. وتطور فن الوصايا في العصر الأموي، وتنوعت الوصايا، فكان منها وصايا سياسية، ووصايا حربية، ووصايا اجتماعية.

أ- الوصايا السياسية:

تعكس هذه الوصايا ما يتحلَّى به الموصِي من دهاء وبُعْد نَظَر وحنكة سياسية، وخبرة بنفوس الرعية وطريقة معاملتها، وهذه الصفات كانت متوافرة في أكثر خلفاء بني أمية، ولا سيَّما في معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان. ولَمَّا كان منهجُ حُكْم بني أميّة يقوم على الوراثة فإنَّ الموصَى كان في الغالب ابناً للموصِي أو أخاً له.

- **نموذج منها:**

أوصى معاويةُ بنُ أبي سفيان ابنَه يزيدَ الذي عَهِدَ له بالحُكْم مِنْ بَعْدِهِ، فقال:

«انْظُر إلى أهلِ الحجاز فهم أصلُكَ وعِتْرتُكَ[1]، فمَنْ أتاكَ منهم فأكرمْهُ، ومَنْ قَعَدَ عنكَ فتعهَّدْهُ، وانْظُر إلى أهل العراق فإنْ سألوك عَزْلَ عاملٍ لهم في كلِّ يومٍ فاعْزِلْ عنهمْ، فإنَّ عَزْلَ عاملٍ أهْوَنُ عليكَ مِنْ سَلِّ مئة ألفِ سيفٍ ثمَّ لا تدري على ما أنتَ عليهم منه، ثم انْظُر إلى أهلِ الشَّام فاجعلهم الشِّعارَ دون الدِّثار[2]،فإنْ رابَكَ مِنْ عَدُوِّكَ ريبٌ فارْمِهِ بهم، فإنْ أظفركَ اللهُ بهم فاردُدْ أهلَ الشام إلى بلادِهم، ولا يُقِيْمُوا في غير بلادهم، فيتأدَّبوا بغير أدبهم. لستُ أخافُ عليكَ غيرَ عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزُّبَيْر وحسين بن علي. فأمَّا عبد الله بن عمر فَرَجُلٌ قد وَقَذَهُ[3] الوَرَع، وأمَّا الحسين فإني أرجو أن يكفيكَهُ اللهُ بمَنْ قَتَلَ أباه[4] وخَذَلَ أخاه[5]، وأمَّا ابن الزُّبَيْر فإنَّه خَبٌّ ضَبٌّ[6] فإنْ ظَفِرْتَ به فَقَطِّعْهُ إرْباً إرْباً.»

---

[1] العِتْرَة: الأصل والعشيرة.

[2] الشعار: ما يلي الجسد من الثياب، والدثار: ما يلي الشعار من مختلف الثياب.

[3] غلبه.

[4] أراد الخوارج.

[5] أراد أهل العراق.

[6] الخَبّ: المخادع، والضَبّ: المحنق المغيظ.

١– الدراسة المعنوية:

– معاني الوصيَّة وأفكارها:

تدلُّ هذه الوصية على عقل معاوية وحنكته في أمور السياسة والحكم، فهو يضع لابنه الخطوط العريضة التي ينبغي أن يسير عليها في سياسته مع أهل الأمصار، وهي سياسة تقوم على اللين والمداراة، فعلى يزيد أن يكرم مَنْ يأتي إليه من أهل الحجاز، وأن يتعهَّد مَنْ يقعد عنه، وعليه أن يهادن أهل العراق، فهم شيعة آل البيت، يتحيَّنون الفرص للوثوب عليه، وأمَّا أهل الشام فقد تربوا على طاعة بني أمية، وتعهَّدهم معاوية طوال أربعين سنة، ولذلك على يزيد أن يعتمد عليهم، ويقرِّبهم، فإنْ طرأت عليه حرب فليرمها بهم. وليحسن معاملتهم بعد انتهاء الحرب. وأما الثلاثة الذين ذكرهم لابنه فقد كان على حقّ من تحذيره من أنهم سينافسونه على الحكم، وذكر السمات الشخصية لكل منهم.

– سمات المعاني:

١. واضحة: فقد عَرَضَ معاوية أفكاره في وضوح دون لَبْس أو غموض أو تعقيد.
٢. مرتَّبة متسلسلة.
٣. غلب عليها الطابع السياسي، فلا أثر للمعاني الدينية فيها.
٤. الاعتناء بالتفصيل، وخاصة في الحديث عن السياسة الخاصة بكل إقليم، والحديث عن المنافسين وشخصياتهم.

٢– الدراسة اللغوية:

– لغة الوصيَّة:

لغة الوصية واضحة، لا تعقيد فيها ولا إسفاف، اتسمت ألفاظها بالوضوح، والجزالة، وخلا النص من الغريب بصورة عامة، إلا أننا قد نجد بعض المفردات الغريبة، مثل: ((**خَبّ، ضَبّ، شِعار، دِثار، وَقَذَهُ**))، وكانت التراكيب بسيطة بعيدة عن التعقيد، واضحة، جيدة السبك، متينة مترابطة.

– الأسلوب:

١. تَراوَحَ أسلوبُ الوصيَّة بين الخبر والإنشاء، وربما استخدم المؤكِّدات مع الخبر ((**فإنَّه خَبٌّ ضَبٌّ...**))، وأما الإنشاء فغلب عليه الإنشاء الطلبي (الأمر) ((**انظرْ إلى أهل الحجاز...**)).

٢. تَناوَبَت الجمل بين الطول والقِصَر، فقد مالتْ إلى الطول في كثيرٍ من الأحيان ((**فإنَّ عَزْلَ عاملٍ أهْوَنُ عليكَ مِنْ سَلِّ مئة ألفِ سيفٍ ثمَّ لا تدري على ما أنتَ عليهم منه**)) لأنَّ السمة العامة للنص هي التفصيل الذي يناسب المقام، ولكنها مع ذلك قد تقصر أحياناً ((**فمَنْ أتاكَ منهم فأكرمْهُ، ومَنْ قَعَدَ عنكَ فتعهَّدْهُ**)).

٣. وضوح أسلوب الشرط في الوصية ((**فمَنْ أتاكَ منهم فأكرمْهُ...**))، وهو أسلوب مناسب للمقام وما اقتضته الحال من التفصيل.

٤. استعان الموصي ببعض عناصر الخيال، مثل الكناية: ((**اجعلهم الشِّعار دون الدِّثار**)) كناية عن تقريبهم، ((**سَلّ مئة سيف**)) كناية عن الثورة، ومثل التشبيه: ((**فإنَّه خَبٌّ ضَبٌّ**))، فالضَّبُّ حيوانٌ يُظهِر ذيلَه لمن أراد اصطياده، فيظنه أفعى، فيتركه ويبتعد عنه، والاستعارة: ((**فإنْ رابَكَ مِنْ عَدُوِّكَ ريبٌ فارْمِهِ بهم**)) فالرَّمْي حقيقةً للسهم، لا للعدو.

٥. لم يُغْفِل الموصِي توشيةَ وَصِيَّتِهِ ببعض المحسنات المعنوية، فمنها الطباق ((**فمَنْ أتاكَ منهم فأكرِمْهُ، ومَنْ قَعَدَ عنكَ فتعهَّدْهُ**))، ومنها الجناس غير التام ((**قَتَلَ أباه وخَذَلَ أخاه**)).

إنَّ أسلوب معاوية في وصيَّته يؤدِّي الغرضَ بأسهل عبارة وأوضح لفظ، وليس فيه من مظاهر العناية بالصَّنْعة الفنية ما يُذْكَر، سوى أنه عرض الأفكار فيه بترتيب ووضوح.

ب- الوصايا الحربية:

كانت الغاية منها تعريف الموصَى بأساليب القتال في حالَتَي الدفاع والهجوم، وفقاً لأصول فن الحرب المتَّبعة في ذلك العصر.

- **ومن نماذجها:** وصيَّة وَجَّهها عبدُ الملك لقائدٍ له سيَّره إلى بلاد الروم، ومِمَّا قال فيها:

«... **لا تطلب الغنيمةَ حتى تحرزَ السلامةَ، وكن من احتيالكَ على عدوِّكَ أشدَّ حَذَراً من احتيال عدوِّكَ عليكَ**».

ج- الوصايا الاجتماعية:

هي أشهر أنواع الوصايا وأكثرها شيوعاً، وهي تتجه إلى الناحية الخُلُقِيَّة، وإلى تبصير الموصَى بآداب السلوك، فتحثّ على التمسّك بمكارم الأخلاق، والتحلّي بالسجايا الحميدة، وعلى حسن معاشرة الإخوان، والحذر من رفاق السوء، والصبر عند النوائب، وصلة الرحم، وغير ذلك من الخِلال الكريمة.

اتسمت الوصايا الاجتماعية بالأسلوب المرسل، وكانت قصيرة الفقرات، موجزة العبارات، دقيقة التعبير.

- **نموذج منها:**

وصيَّة المهلَّب بن أبي صُفْرة لِبَنِيْهِ حين أَحَسَّ بدنوِّ مَنِيَّتِهِ، وقد روى الطبري أنه دعا بَنِيه إليه ثم دعا بسهامٍ فحُزِمَتْ، وقال لهم: «**أَتَرَوْنَكُمْ كاسريها مجتمعةً؟ قالوا: لا، قال: أَفَتَرَوْنَكُمْ كاسريها متفرِّقةً؟ قالوا: نعم، قال: فهكذا الجماعة، فأوصيكم بتقوى الله، وصِلة الرَّحِم، فإنَّ صِلة الرَّحِم تُنْسِئُ في الأَجَل، وتُثري المال، وتُكثر العدد، وأنهاكم عن القطيعة، فإنَّ القطيعة تُعقِب النار، وتورث الذِّلَّةَ والقِلَّة، فتحابّوا وتواصلوا، وأجمعوا أَمْرَكم ولا تختلفوا، وتبارّوا تجتمعْ أمورُكُمْ. إنَّ بني الأمِّ يختلفون فكيف ببني العَلَّات**[٧]**؟! وعليكم بالطاعة والجماعة، وليكن فَعالُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ قَوْلِكُمْ...**».

انتهت المحاضرة السابعة

[٧] بنو العَلَّات: الإخوة من أمهات شتى.